

جمع الشتات من الحديث عن الأموات

جمــــع الشتات

* من عاش أو نطق بعد الموت:

● قال الحافـظ السخاوي في «الجواهـر والدرر في ترجمة شـيخ الإسلام الحافظ ابن حجر»:

كتب إليه[1] ابن المصري:

أسيِّدنا قاضي القضاة ومَنْ له — علينا نعم لا تَناهى تعدُّدا
سؤال طرا: في أي موطنٍ قد أتت — حياةٌ لميت بعد ما كان مُلْحَدَ
بأمرِ الذي لولاه ما عُرِف الهدى — ولا أتهم السَّاري إليه وأنْجَدَ
وهذا «الشِّفا» فيه دليل وإنما — يَرُوم زيادات بحفظك يُقتدى
فبيِّن ـ رعاك اللّه ـ يا حافظًا حوى — من السُّنة الغرّاءِ صدرًا وموردا

● فأجابه:

نعم عاش أمواتٌ بدعوة من أتى — من اللّه للأحياءِ بالنور والهُدى
فمنها ابن مَن قد هاجرت ودعت — وقد قضى عاش عشيًا حيًّا طيبًا ومُرغدا
ومنها التي ماتت بوادِ فخيِّرت — ومنها ذراعُ الشاة تنهى عن الرَّدى
فهذا الذي يحوي «الشفا» وبغيره — إعادة إبراهيم من بعد ما ارتدا
ومثل ذراع الشاة شاة التي دعت — إلى دارها قالت: أخذتُ بلا فدا
وأصرح من كل شُويهة جابرٍ — دعا فلقد كادت تُلَبي له الندا
وأصدَرها للبيت من بعد ذبحها — عليه سلام اللّه مثنى وموحدا

ثم قال للسائل: فهذه سبعة أشياء ما بين بهيمة تنطق بعد الموت وإنسان كذلك واحدٌ بالفعل وآخر بالقوّة، وما بين من عاش بعد الموت إما إنسان وإما بهيمة وشرح ذلك:

---

(١) أي: إلى الحافظ ابن حجر.

أما القصة الأولى: فذكرها عياض عن أنس أن شابًّا من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء، قال: فسجّيناه وعزّيناه فقالت: مات ابني؟ قلنا: نعم، قالت: اللّهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملنّ عليّ هذه المصيبة، قال: فما بَرِحنا أن كشف الثوب عن وجهه فطَعِم وطعمنا.

وأما قصة ذراع الشاة التي سُمَّت بخيبر فأصلها في «الصحيحين» وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه عند أبي داود: أن يهودية أهدت إلى النبي ﷺ بخيبر شاة مَصليَّة، فأكل رسول اللَّه ﷺ منها وأكل القوم، فقال: «**ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة**».

ورواه البزار من حديث أنس ﷺ بلفظ: «**إنّ عُضواً من أعضائها يخبرني أنها مسمومة**». ورواه من حديث أبي سعيد ﷺ نحوه.

وفي حديث جابر ﷺ: «**أخبرتني هذه الذراع**».

ومن حديث كعب بن مالك ﷺ، فقال ﷺ للمرأة: «**هل سَمّمت هذه الشاة؟**»، قالت: من أخبرك؟ قال: «**هذا العظم**»، لساقها، وهو في يده، قالت: نعم. أخرجه الطبراني.

وأما قصة الذي وأد بنته: فذكرها عياض عن الحسن مرسلاً قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فذكر له أنه طرح بنيّة له في وادي كذا فانطلق معه إلى الوادي فقال لها باسمها: «**يا فلانة احيي بإذن اللّه**» فخرجت وهي تقول: لبيك وسعديك، فقال لها: «**إن أبويك قد أسلما فإن أحببت أن أردك عليهما؟**»، قالت: لا حاجة لي فيهما، فقد وجدت اللّه خيرًا لي منهما.

وأما قصة إبراهيم: فرواها أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن نُبيط بن شريط

في نسخته المشهور عن أبيه، عن جده إبراهيم، وكان قد أدرك النبي ﷺ فمات عنده، فبعث النبيُ ﷺ إلى أمه الفريعة بنت جابر أن ابنك إبراهيم قد مات، فقالت: الحمد اللَّه. اللَّهم إني قد هاجرت إليك وإلى نبيك ليكون لي عند كل مصيبة، فلا تحمل علي هذه المصيبة اليوم قال: فأحياه اللَّه عند ذلك، وأكل وطعم بين يدي النبي ﷺ . ا.هـ.

وهذه تشبه القصة الأولى إلا أنه قال في الأولى: إن الشاب من الأنصار وإبراهيم بن نبيط أشجعي، فالظاهر التعدد.

وأما قصة تخيير والد الميت: فرواها أبونعيم في «الدلائل» من طريق ميسر الحلبي، عن عتبة بن ضميرة، قال: سمعت والدي يقول: كان لرجل صِرمة من غنم، وكان له ابن يأتي النبي ﷺ بقدح من لبن إذا حَلَبَ. ثم إن النبي ﷺ افتقده، فجاء أبوه فأخبره أن ابنه هلك، فقال النبي ﷺ : **«أتريد أن أدعو اللَّه تعالى أن ينشره لك، أو تصبر فَيُدخر لك إلى يوم القيامة، فيأتيك فيأخذ بيدك، فينطلق بك إلى باب الجنة، فتدخل من أي أبوبها شئت»**، فقال الرجل: ومن لي بذلك يا رسول اللَّه؟ فقال ﷺ : **«هو لك ولكل مؤمن»**.

وأما قصة المرأة: التي دعت النبي ﷺ إلى طعام فقدمت بين يديه شاة فلما أراد أن يأكل قال: **«إن هذه الشاة أخذت بغير حق»**.

فأصلها في «سنن أبي داود» وغيره.

وذكرها صاحب «شفاء الصدور» بلفظ: «أن امرأة رأت النبي ﷺ فأرادت أن تطعمه شيئًا، ولم يكن عندها شيء فذكرت عند جارتها عناقًا، وكانت جارتها غائبة، فقالت: إنها لا تمنعني، فذبحتها، ثم شوتها، وقدمتها بين يدي النبي ﷺ فقال: **«إن هذه العَناقَ لتخبرني أنها أخذت بغير حق»**.

فقالت المرأة: قد كان ذلك.

وأما قصة شاة جابر ﷺ: فأخرجها أبو نعيم في «الدلائل» من طريق أبي البرّاح بن سهل، عن أبيه سهل بن عبد الرحمن، عن أبيه عبد الرحمن بن كعب، عن أبيه كعب بن مالك الأنصاري، قال: أتى جابر بن عبد الله ﷺ رسول اللَّه ﷺ فرّد عليه السلام قال جابر: فرأيت في وجه رسول الله ﷺ تغيرًا، وما أحسبه تغير إلا من الجوع، فقلت لامرأتي: هل عندك من شيء؟ قالت: واللَّه ما لنا إلا هذه الداجن وفضلة من زاد نعلّل بها الصبيان، فقلت لها: هل لك أن تذبحي هذه الداجن وتصنعين ما عندك، ثم نحمله إلى رسول اللَّه ﷺ؟ قالت: أفعل ما أحببت من ذلك. قال: فذبحت الداجن، وصنعت ما كان عندها، وطحنت وخبزت وطبخت، ثم ثردتها في جفنة لنا، فوضعت الداجن، ثم حملتها إلى رسول اللَّه ﷺ فوضعتها بين يديه، فقال: «**ما هذا يا جابر؟**»، قلت: يا رسول اللَّه ظننت أن وجهك لم يتغير إلا من الجوع فذبحت داجنًا كانت لنا، ثم حملتها إليك، فقال النبي ﷺ: «**يا جابر اذهب فادع لي قومك**»، قال: فأتيت أحياء الأنصار. فلم أذل أجمعهم، فأتيته بهم، ثم دخلت إليه فقلت: يا رسول اللَّه، هذه الأنصار قد اجتمعت قال ﷺ: «**أدخلهم علي أرسالاً**»، فكانوا يأكلون منها، فإذا شبع قوم خرجوا ودخل آخرون حتى أكلوا جميعًا وفَضَل في الجفنة شبه ما كان فيها، وكان رسول اللَّه ﷺ قال لهم: «**كلوا ولا تكسروا عظمًا**»، ثم إن رسول اللَّه ﷺ جمع العظام في وسط الجفنة، فوضع يده عليها، ثم تكلم بكلام لم أسمعه إلا أني أرى شفته تتحرك فإذا الشاة قد قامت تنفض أذنيها فقال لي: «**خذ شاتك يا جابر، بارك اللَّه لك فيها**»، فأخذتها ومضيت، فإنها لتسارعني بأذنها، حتى أتيت بها البيت، فقالت لي المرأة: **ما هذا يا جابر؟**

قلت: هذه شاتنا التي ذبحناها لرسول اللَّه ﷺ دعا اللَّه فأحياها لنا قالت: أشهد أنه رسول اللَّه. ا.هـ.

*** «حاملُ كفنه»:**

وقال أحمد بن علي بن ثابت البغدادي:

بلغني أن محمد بن يحيى البغدادي المعروف بحامل كفنه، توفي وغسل وكفن وصلُي عليه، ودُفن. فلما كان أول الليل جاءه نباش، فنبش عليه، فلما حل أكفانه ليأخذها استوى قاعدًا، فخرج النباش هاربًا منه، فقام وحمل كفنه وخرج من القبر، وجاء إلى منزله وأهله يبكون، فدق الباب عليهم، فقالوا: من أنت؟

فقال: أنا فلان.

فقالوا له: لا يَحلُّ لك أن تزيدنا على ما بنا.

فقال: يا قوم افتحوا، فأنا واللَّه فلان.

فعرفوا صوته، ففتحوا له الباب وعاد حزنهم فرحًا، وسُمِّي من يومه (حامل كفنه) توفي ـ رحمه اللَّه ـ في حدود الثلاثمائة[1].

*** من تمنّى موت مَنْ أحبّ من ذريته محبّة شديدة، حتى لا يشغل قلبه أحد مع اللَّه:**

قال بعض أصحاب البهلول بن راشد: دخلت عليه وبين يديه ابنته طفلة، وعليها ثياب مصبوغة، فقال لي: ما أَحْبَبْتُ شيئًا حُبِّي لها، وإني لأحبُ لو قَدَّمتُهَا لربي.

---

(١) «الوافي بالوفيات» (٥/ ١٨٩).

قال: فانصرفت عنه، ثم رجعت إليه، فأصبت الناس مجتمعين على بابه، فسألت: فقيل لي: ماتت ابنته، فدخلت عليه وعزيته.

فلما وليتُ لحقني وقال: باللَّه لا تذكر ما كان مني - يعني: أمنيته - ما دمت حيًّا[١].

*** النعش:**

دخل بهاء الدين السبكي على الشيخ برهان الدين الإبناسي يعوده، وكان تجاههما نعش، فنظر السبكي إلى النعش، ثم قال للإبناسي: يا شيخ برهان الدين: أتدري ما يقول هذا النعش؟ فقال إنه يقول:

انْظُرْ إِلَيَّ بِعَقْلِكْ ... أَنَا المُعَدُّ لِحَمْلِكْ
أَنَا سَرِيرُ المَنَايَا ... كَمْ سَارَ مِثْلِي بِمِثْلِكْ[٢]

*** مشهد تسلسل الوفيات على نسق سابق في الحياة:**

أحداث الحياة قد تتابع على نسق معيَّن، ثم تقع أحداث أخرى ذاتُ صلة بالأولى، وتكون الأحداثُ اللاحقةُ متتابعةً على مثل النسق الذي مضت عليه الأحداث السابقة.

وكثير من الناس يظنون أن ذلك التتابع المتناسق قد حدث من طريق المصادفة، والحق أن ذلك من تقدير العزيز العليم.

ومن تلك الأحداث العجيبة ما نشرته صحيفة الأهرام في أحد أعدادها حيث كتبت ما يلي:

لما مات الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه اللَّه - رثاه على قبره ستة من

(١) «الحلل السندسية» ص(٧١٩).

(٢) «المنهل الصافي» (١/ ٤١٣).

الشعراء على هذا الترتيب:

١ ـ الشيخ حسن أبو خطوة.

٢ ـ حسن باشا عاصم.

٣ ـ حسن باشا عبد الرازق.

٤ ـ قاسم بك أمين.

٥ ـ حفني بك ناصف.

٦ ـ حافظ بك إبراهيم.

وصادف أن الشعراء الستة ماتوا تباعًا وفق ترتيبهم في رثاء الشيخ محمد عبده.

ولما مرض حافظ إبراهيم، وخاف على نفسه من الموت، ولم يبق وقتئذٍ إلا حافظ وحفني بعث إليه حفني مطمئنًا بأن الدور الآتي هو على حفني وليس على حافظ وقال:

أتذكر إذ كنا على القبر ستةً ... نُعَدِّدُ آثَار الإمامِ وَنَنْدُبُ
وَقفْنَا بترتيبٍ وقَدْ دَبَّ بيننا ... مماتٌ على وَفْقِ الرِّثاءِ مُرتّبُ
أبو خطوةٍ ولّى وَقفَّاه عاصمٌ ... وجاء لعبدِ الرَّازقِ الموتُ يَطْلُبُ
فَلَبَّى وغابتْ بعده شمسُ قاسمٍ ... وعمَّا قليل نجمُ مَحْيَايَ يَغْرُبُ
فَخَاطِرْ وَقَعْ تَحْتَ القِطَارِ وَلا تَخفْ ... وَنَمْ تَحْتَ بَيْتِ الْوَقْفِ وهو مُخَرَّبُ
وخُضْ لُجَجَ الهَيْجَاءِ أعْزَلَ آمنًا ... فإن المنايا مِنكَ تَجْرِي وتَهْرُبُ

● فأجابه حافظ بقول:

أخشى عليك المنايا ... حتَّى كأنَّك مِنِّي
إذا شكوتَ صُدَاعًا ... أطلْتَ تسهيدَ جَفْنِي
وإنْ عَرَاكَ هُزَالٌ ... هَيَأْتُ لَحْدِي وَقُطْنِي

عُـمْـرِي بِـعُـمْـرِكَ رَهْـنٌ فَـعِـشْ أَعِـشْ أَلْـفَ قَـرْنِ

وقد تحقق ما توقَّع حفني، فمات حفني ناصف أولاً عام ١٩١٩ وتوفي حافظ إبراهيم بعده عام ١٩٣٢ فسبحان الحي الذي لا يموت، ورحم اللَّه الجميع»[١].

*** من اسمه «يموت»: أبو بكر يموت بن عيسى المزرّع:**

كان «يموت» قد سمّى نفسه محمدًا، وذكره الخطيب البغدادي في «تاريخه الكبير» في المحمدين، ثم ذكره في حرف الياء، وقال: هو يموت وهو ابن أخت أبي عثمان الجاحظ... قدم بغداد في سنة إحدى وثلثمائة وهو شيخ كبير، وحدّث بها عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني، وروى عنه أبو بكر الخرائطي، وأبو بكر بن مجاهد المقرئ، وأبو بكر بن الأنباري وغيرهم.

● وكان أديبًا أخباريًا، وله ملح ونوادر، وكان لا يعود مريضًا خوفًا أن يتطير من اسمه، وكان يقول: بُليت بالاسم الذي سمّاني أبي به، فإني إذا عدت مريضًا فاستأذنت عليه، فقيل: من هذا قلت: أنا ابن المزرع، وأسقطت اسمي.

● ومدحه منصور الفقيه الضرير الشاعر المشهور بقوله:

أن تحيا والذي يكـ ـره أن تحيا يموتُ
أنت صنو النفس بل أنـ ـت لروح النفس قوت
أنت للحكمة بيتٌ لا خَلَتْ منك البيوت

(١) من (صحيفة الأهرام العدد ٤٠٦٣٦ الحادي عشر من ذي القعدة ١٤١٨هـ العاشر من مارس ١٩٩٨م).

● قال يموت لابنه مهلهل:

مُهَلْهِلُ قدْ حَلَبْتُ شطورَ دهري ... وكافحني بها الزمن العَنُوتُ
وحاربتُ الرجالَ بكل رَبْع ... فأذْعَنَ لي الحُثالةُ والرُّتُوتُ[1]
فَأَوْجَعُ ما أجِنُّ عليه قلبي ... كريمٌ نَمتَّهُ زمنٌ غَتُوتُ
كفى حَزَنًا بضيعة ذي قديمٍ ... وأبناءُ العبيدِ لها البُخوتُ[2]
وقد أَسْهَرتُ عيني بعدَ غَمْضٍ ... مخافةَ أن تضيعَ إذا فَنِيتُ
وفي لطف المهيمن لي عزاءٌ ... بمثلك إن فَنِيتُ وإن بَقِيتُ
فجُبْ في الأرض وابغِ بها علومًا ... ولا تقطعك جائحةٌ سَبُوت[3]
وإنْ بَخِل العليمُ عليك يومًا ... فَذلَّ لَهُ ودَيْدَنُكَ السُّكُوتُ
وقُلْ بالعِلْم كان أبي جوادًا ... يُقالُ: ومَن أبوكَ؟ فقل: يموتُ
يُقِرُّ لك الأباعدُ والأداني ... بعلم ليس يَجْحَدُهُ البَهُوتُ

قدم «يموت» مصر مراراً. ومات يموت سنة أربع وثلثمائة بدمشق، وقال أبو سليمان بن زَبْر في «تاريخه» إنه مات في سنة ثلاث وثلثمائة بطبرية الشام والله أعلم[4].

* * *

(١) الرتوت: جمع رت وهو الرئيس.
(٢) وفي نسخة: لها التخوت.
(٣) وفي رواية: «ولا تَلْفتْك عن هذا الدسوت» والسَّبُوت: القاطعة.
(٤) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٥/ ٤١٦ ـ ٤٢١).

* الموت ليس بتارك أحدا:

● عن أنس ﷺ قال: «لما قالت فاطمة ذلك، يعني لما وجد رسول الله ﷺ من كرب الموت ما وجد، قالت فاطمة: وا كرباه، قال رسول الله ﷺ: **«يا بُنَيّة! إنه قد حضر بأبيك ما ليس الله بتاركٍ منه أحدًا لموافاة يوم القيامة»**(١).

* تردُّد الله سبحانه وتعالى في قبض نفس المؤمن:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقربَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقربُ إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»**(٢).

* يا للّه ما أعجب أمر المؤمن!.

● المؤمن تخرج نفسه وهو يحمد الله تعالى، قال رسول الله ﷺ:

«إن المؤمن تخرج نفسه من بين جنبيه، وهو يحمد الله»(٣).

* يا دار تخربين ويموت سكانك:

كان الإمام أحمد يقول: يا دار تخربين ويموت سكانك.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٤١)، قال الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٣٨): «وهذا إسناد حسن».

(٢) رواه البخاري.

(٣) صحيح: رواه البيهقي في «الشعب» عن ابن عباس، وكذا رواه أحمد، والنسائي، والضياء، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٩٣١).

● ولله در القائل:

وما هي إلا ليلة بعد ليلة ويوم إلى يومٍ وشهر إلى شهر
مطايا يقرّبن الجديد إلى البلى ويُدنين أشلاء الصحيح إلى القبر

* أخي: لا تنس دَار البِلَىٰ:

وَلا تَلْهُ [١] عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَابْكِه [٢]
بِدَمْعٍ يُضَاهِي الْمُزْنَ [٣] حَالَ مَصَابِهِ [٤]

وَمَثِّلْ [٥] لِعَيْنَيْكَ الْحِمَامَ [٦] وَوَقْعَهُ [٧]
وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ [٨] وَمَطْعَمَ صَابِهِ [٩]

وإنَّ قُصَارَى [١٠] مَنْزِلِ الْحَيِّ حُفْرَةٌ
سَيَنْزِلُهَا مُسْتَنْزَلاً [١١] عَنْ قِبَابِهِ [١٢]

فَوَاهًا [١٣] لِعَبْدٍ سَاءَهُ سُوءُ فِعْلِه [١٤]
وَأَبْدَى التَّلافِي قَبْلَ إِغْلاقِ بَابِهِ [١٥]

---

(١) أي: لا تغفل وتعرض. (٢) أي: ابكِ على نفسك باقترافك الذنوب.
(٣) هو السحاب الممطر وفي نسخة بدل المزن الوبل وهو المطر الغزير.
(٤) المصاب بالفتح مصدر كالصوب وهو نزول المطر.
(٥) أي: صوّر وشخّص. (٦) بالكسر هو: الموت.
(٧) أي: هجومه. (٨) أي: فزع لقائه.
(٩) الصاب شجر مرّ، أو هو الحنظل، أي: مرارة طعم الموت.
(١٠) قصارى الأمر غايته أي: غاية سكنى المرء أي: مآله إلى حفرة وهي القبر.
(١١) بفتح الزاي حال من فاعل سينزلها أي: منحطًا.
(١٢) القباب جمع قبة بناء معلوم والمراد: ما يشيده من البناء.
(١٣) واهًا كلمة تقال للتعجب بمعنى ما أحسن فعله. (١٤) أي: أحزنه قبح ما صنع.
(١٥) أي: أظهر تدارك ما فاته من حسن الصنيع قبل انقضاء أجله.

* أخي:

ما عسى أن يكون بقاء مَنْ لَهُ يوم لا يَعْدُوه؟ وطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتى يفارقها.

أَوَ لَمْ تَرَوا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقين لا يبقون؟

أو لستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويُمسون على أحوال شتى فميت يُبكى، وآخر يُعَزَّى، وصريع مبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافلٌ وليس بمغفول عنه وعلى أثر الماضي يمضي الباقي.

ألا فاذكروا هاذم اللذات، ومنغص الشهوات، وقاطع الأمنيات.

* تَنَبَّه قبل الموت إن كنت تعقلُ:

تَنَبَّهْ قبلَ الموتِ إن كنت تَعقِلُ ... فعمّا قليلٍ للمقابرِ تُنْقَلُ
وتُمسِي رهينًا في القبور وتَنْثَني ... لدى جَدَثٍ تحت الثرى تَتَجَنْدَلُ
فريداً وحيداً في التراب، وإنما ... قرينُ الفتى في القبرِ ما كان يعملُ
وما يَفْعلُ الجسمُ الوسيمُ إذا ثوى ... وصار ضجيعَ القبرِ يَعلوهُ جَنْدَلُ
وبطنٍ بَدَا فيه الردى ثمَّ لوْ ترى ... دقيقَ الثرى في مُقلةٍ يَتَهَرْوَلُ
أعينايَ جُودَا بالدموعِ عليكُما ... فحزني على نفسي أحقُّ وأجملُ
أيا مدّعِي حُبِّي هلمَّ بنا إذَا ... بكى الناسُ نبكي للفراقِ ونَهْمَلُ
دَعي اللهوَ نفسي واذكري حفرةَ البِلَى ... وكيف بنا دودُ المقابرِ يفعلُ
إلى اللّه أشكو لا إلى الناسِ حالتي ... إذا صرتُ في قبري وحيداً أُمَلْمَلُ

* **أخي:**

غداً يُمسكُ اللسان، ويزول العـرفان، وتنشر الأكفان، وتفارق الإخوان، وتنقل إلى الأموات، وتصفُّ عليك اللبنات.

* **أخي:**

من كانت الأيام والليالي مطاياه، سارت به وإنْ لم يَسر.

نسيرُ إلى الآجال في كل لحظةٍ ... وأيامنا تُطوى وهنَّ مراحلُ
ولم أر مثل الموتِ حقًّا كأنه ... إذا ما تخطَّتْهُ الأماني باطلُ
وما أقبح التفريط في زمن الصِّبَا ... فكيف به والشيب للرأس شَاعُل
تَرَحَّلْ من الدنيا بزادٍ من التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أيامٌ وهن قلائُل

* * *

* **معنى آية: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]:**

● قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ٣٥١ ـ ٣٥٢):

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ فيه ثلاث أقوال:

أحدها: أنها بمعنى: «سوى»، فتقدير الكلام: لا يذوقون في الجنة الموت سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا، ومثله: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧]، أي: سوى ما شاء لهم ربك من الزيادة على مقدار الدنيا، هذا قول الفراء، والزجاج.

والثاني: أن السعداء حين يموتون يصيرون إلى الرَّوح والرَّيحان وأسباب من الجنة يَرَوْنَ منازلهم منها، وإذا ماتوا في الدنيا، فكأنهم ماتوا في الجنة، لاتصالهم بأسبابها، ومشاهدتهم إياها، قاله ابن قتيبة.

والثالث: أن ﴿إلاَّ﴾ بمعنى: «بَعْد»، كما ذكرنا في أحد الوجوه في قوله: ﴿إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، وهذا قول ابن جرير.

● قال ابن كثير: وقوله: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ هذا استثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا، كما ثبت في «الصحيحين» أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت».

* * *

* **أخي: خلِّ ادِّكارَ الأَرْبُعِ:**

رنّ إرنـانَ[١] الرَّقوب[٢] ، وابك بكاء يعقوب، ألا عـبرات يتحدرن من المآقـي، وزفرات يتصعدن من الـتراقي، اجـعل الموت نصب عينـك، وقل للشهوات هذا فراق بيني وبينك.

خَـلِّ ادِّكَـارَ الأَرْبُـعِ[٣] وَالْمَعْهَدِ الْمُرْتَبَعِ[٤]
وَالظَّاعِنِ الْمُودِّعِ[٥] وَعَدِّ عَنْهُ وَدَعِ[٦]
وَانْدُبْ[٧] زَمَانًا سَلَفَا[٨] سَوَّدْتَ فِيهِ الصُّحُفَا[٩]
وَلَمْ تَزَلْ مُعتَكِفَا عَلَى الْقَبِيحِ الشَّنِعِ[١٠]
كَمْ لَيْلَةٍ أَوْدَعْتَهَا مَآثِمًا[١١] أَبْدَعْتَهَا[١٢]
لِشَهْوَةٍ أَطَعْتَهَا فِي مَرْقَدٍ وَمَضْجَعِ
وَكَمْ خُطًى[١٣] حَثَثْتَهَا[١٤] فِي خِزْيَةٍ[١٥] أَحْدَثْتَهَا

---

(١) الإرنان: كالرنين صوت فيه غُنَّة.
(٢) الرقوب: هي المرأة التي يعيش أولادها فلا يبقى منهم أحد.
(٣) أي: اترك تذكر المنازل.
(٤) المعهد الموضع الذي كنت تعهد به شيئًا والمرتبع أي: الذي تقيم فيه زمن الربيع.
(٥) أي: المسافر الذي يودعك من أحبابك كذلك خل ادكاره.
(٦) أي: تنح عن تذكار ذلك واتركه.
(٧) أي: وابكِ بكاءَ من يفقد عزيزًا ويندبه.
(٨) أي: مضى وفات.
(٩) يعني: فعلت به من الخطايا والمآثم ما يسود صحيفتك.
(١٠) الزائد في القبح الذي يُتحَدَّث بقبحه.
(١١) أي: ضمنتها ذنوبًا.
(١٢) أي: ما سبقك بها أحد.
(١٣) جمع خطوة بمعنى المشي.
(١٤) استعجلت بها وجهدت نفسك فيها.
(١٥) أي: فيما يوجب الخزية وهي الذل والهوان ولا يوجبها إلا قبيح المعاصي.

وَتَـوبَـةٍ نَـكَـثْـتَـهَـا[١] لَـمَـلْـعَـبٍ وَمَـرْتَـعِ
وَكَـمْ تَـجَـرَّأْتَ[٢] عَـلَـى رَبِّ الـسَّـمَـاوَاتِ الْـعُـلَـى
وَلَـمْ تُـرَاقِـبْـهُ[٣] وَلاَ صَـدَقْـتَ فِـي مَـا تَـدَّعِـي[٤]
وَكَـمْ غَـمَـصْـتَ بِـرَّهُ[٥] وَكَـمْ أَمِـنْـتَ مَـكْـرَهُ
وَكَـمْ نَـبَـذْتَ أَمْـرَهُ[٦] نَـبْـذَ الْـحِـذَا الْـمُـرَقَّـعِ[٧]
وَكَـمْ رَكَـضْـتَ[٨] فِـي اللَّـعِـبْ وَفُـهْـتَ[٩] عَـمْـدًا بِـالْـكَـذِبْ
وَلَـمْ تُـرَاعِ مَـا يَـجِـبْ مِـنْ عَـهْـدِهِ الْـمُـتَّـبَـعِ[١٠]
فَـالْـبَـسْ شِـعَـارَ الـنَّـدَمِ[١١] وَاسْـكُـبْ شَـآبِـيـبِ[١٢] الـدَّمِ
قَـبْـلَ زَوَالِ الْـقَـدَمِ وَقَـبْـلَ سُـوءِ الْـمَـصْـرَعِ[١٣]
وَاخْـضَـعْ خُـضُـوعَ الْـمُـعْـتَـرِفْ وَلُـذْ مَـلاَذَ[١٤] الْـمُـقْـتَـرِفْ[١٥]

---

(١) أي: نقضتها. (٢) أي: أقدمت وتجاسرت.

(٣) أي: لم تنظر إلى عقابه.

(٤) أي: خلف فعلك دعواك على حد قول القائل:

تعصي الإلهَ وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديعُ
لو كان حبك صادقًا لأطعته إن المحبَّ لمن يحب مطيعُ

(٥) وفي نسخة غمطت بره أي: حقرت وتنقصت إحسانه.

(٦) أي: طرحته وتركته. (٧) أي: كنبذ النعال المرقعة.

(٨) أي: سعيت وجريت. (٩) أي: تفوهت بمعنى نطقت وتلفظت.

(١٠) أي: من ميثاق مولاك الذي يجب عليك اتباعه.

(١١) الشعار في الأصل ما يلي شعر الجسد مما يُلبس من الثياب فاستعاره للندم يعني لازم الندم ولاصقه كملاصقة الشعار.

(١٢) جمع شؤبوب الدُّفعة من المطر تأتي بقوة وشدة وشؤبوب كل شيءٍ حده.

(١٣) محل الصرع والصرع الإلقاء على الأرض والمراد: الموت.

(١٤) والجأْ. (١٥) أي: كما يلوذ ويلجأ مقترف الذنوب المكتسب لها.

وَاعْصِ هَوَاكَ وَانْحَرِفْ عَنْهُ[١] انْحِرَافَ الْمُقْلِعِ[٢]
إِلامَ تَسْهُو[٣] وَتَنِي[٤] وَمُعْظَمُ الْعُمْرِ فَنِي
فِي مَا يَضُرُّ الْمُقْتَنِي[٥] وَلَسْتَ بِالْمُرْتَدِعِ[٦]
أَمَا تَرَى الشَّيْبَ وَخَطْ[٧] وَخَطَّ[٨] فِي الرَّأْسِ خِطَطْ[٩]
وَمَن يَلُحْ[١٠] وَخْطُ الشَّمَطْ[١١] بِفَوْدِهِ[١٢] فَقَدْ نُعِي[١٣]
وَيْحَكِ[١٤] يَا نَفْسِ احْرِصِي عَلَى ارْتِيَادِ الْمَخْلَصِ[١٥]
وَطَاوِعِي وَأَخْلِصِي وَاسْتَمِعِي النُّصْحَ وَعِي[١٦]
وَاعْتَبِرِي بِمَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ[١٧] وَانْقَضَى
وَاخْشَيْ مُفَاجَاةَ الْقَضَا[١٨] وَحَاذِرِي أَنْ تُخْدَعِي

---

(١) أي: تجنبه وتحول عنه. (٢) الذي يقلع عما هو متلبس به مما يستقبح.
(٣) أي: إلى متى تخطئُ عن طريق الصواب.
(٤) أي: وتفتر وتتكاسل عن الجد فيما هو المطلوب من الونى كالفتى وهو الفترة.
(٥) أي: المكتسب.
(٦) أي: لست بالمنزجر الكاف شهوته يعني أنك أفنيت عمرك في التكاسل عن طاعة مولاك وفيما يضرك في أخراك ولم ترد نفسك عن ذاك.
(٧) أي: خالط أو فشا. (٨) أي: كتب وعلم.
(٩) جمع خطة بالكسر بمعنى الطريق. (١٠) من لاح يلوح إذا ظهر ولمع.
(١١) الوخط الاختلاط والشمط اختلاط بياض الشيب بسواد الشعر.
(١٢) متعلق بيلح أي: ومن يظهر بفوده وهو معظم شعر الرأس مما يلي الأذن اختلاط الشيب بالسواد.
(١٣) أي: فكأنه مات ونعي إذ ليس بعد ذلك إلا الموت.
(١٤) كلمة ترحم. (١٥) أي: طلب الخلاص والنجاة.
(١٦) أمر من الوعي بمعنى الحفظ. (١٧) الأمم الماضية.
(١٨) أي: هجوم الموت.

وَانْتَهِجِي سُبْلَ الْهُدَى[١] وَادَّكِرِي[٢] وَشْكَ الرَّدَى[٣]
وَأَنَّ مَثْوَاكِ غَدًا[٤] فِي قَعْرِ لَحْدٍ[٥] بَلْقَعِ[٦]
آهًا لَهُ بَيْتَ الْبِلَى وَالْمَنْزِلِ الْقَفْرِ الْخَلا
وَمَوْرِدِ السَّفْرِ الأُلَى[٧] وَاللَّاحِقِ الْمُتَّبِعِ
بَيْتٌ يُرَى مَنْ أُودِعَهْ[٨] قَدْ ضَمَّهُ وَاسْتُودِعَهْ[٩]
بَعْدَ الْفَضَاءِ وَالسَّعَهْ قِيدَ ثَلاثِ أَذْرُعِ[١٠]
لا فَرْقَ أَنْ يَحُلَّهُ دَاهِيَةٌ[١١] أَوْ أَبْلَهُ[١٢]
أَوْ مُعْسِرٌ أوْ مَنْ لَهُ مُلْكٌ كَمُلْكِ تُبَّعِ
وَبَعْدَهُ الْعَرْضُ[١٣] الَّذِي يَحْوِي الْحَيِيَّ[١٤] وَالْبَذِي[١٥]
وَالْمُبْتَدِي وَالْمُحْتَذِي[١٦] وَمَنْ رَعَى وَمَنْ رُعِي[١٧]
فَيَا مَفَازَ الْمُتَّقِي وَرِبْحَ عَبْدٍ قَدْ وُقِي[١٨]

---

(١) أي: اسلكي وسيري في طريق الهدى والرشاد.
(٢) أي: تذكري. (٣) أي: سرعة الهلاك.
(٤) أي: مقركِ بعد الموت.
(٥) هو القبر وهو ما يحفر في جانب على قدر الملحود.
(٦) أي: خال.
(٧) أي: المسافرين المتقدمين يعني أن القبر منزل للمتقدمين والمتأخرين.
(٨) أي: من تُرك فيه. (٩) أي: قد حواه وصار مودعًا فيه.
(١٠) أي: مكان قدر ثلاث أذرع. (١١) أي: بليغ في الدهاء مجرب للأمور حاذق.
(١٢) مغفل زائد الغفلة. (١٣) بالفتح وهو عرض الناس للحساب في الموقف.
(١٤) أي: يجمع ويضم ذا الحياء. (١٥) ذا الوقاحة المتكلم بفحش الكلام.
(١٦) المتبع للمبتدي الحاذي حذوه.
(١٧) بالبناء للفاعل الرئيس على جماعة وبالبناء للمفعول رعية الراعي.
(١٨) أي: كفي.

سُوءَ الْحِسَابِ الْمُوبِقِ(١) ... وَهَوْلَ يَوْمِ الْفَزَعِ
وَيَا خَسَارَ مَنْ بَغَى(٢) ... وَمَنْ تَعَدَّى وَطَغَى(٣)
وَشَبَّ(٤) نِيرَانَ الْوَغَى(٥) ... لِمَطْعَمٍ أَوْ(٦) مَطْمَعِ(٧)
يَا مَنْ عَلَيْهِ الْمُتَّكَلْ ... قَدْ زَادَ مَا بِي مِنْ وَجَلْ(٨)
لِمَا اجْتَرَحْتُ(٩) مِنْ زَلَلْ(١٠) ... فِي عُمْرِيَ الْمُضَيَّعِ(١١)
فَاغْفِرْ لِعَبْدٍ مُجْتَرِمْ(١٢) ... وَارْحَمْ بُكَاهُ الْمُنْسَجِمْ(١٣)
فَأَنْتَ أَوْلَى مَنْ رَحِمْ ... وَخَيْرُ مَدْعُوٍّ دُعِي

* * *

*** ونختم: بما قاله مالك بن دينار عن الحسن:**

قال مالك بن دينار: كنا مع الحسن في جنازة، فسمع رجل يقول لآخر: من هذا الميت؟ فقال الحسن: هذا أنا وأنت (رحمك اللَّه)، أنهم محبسون على آخرنا حتى يلحق آخرنا بأولهم(١٤).

* * *

(١) أي: الموقع في الهلاك.
(٢) أي: ظلم.
(٣) أي: تجاوز الحد في بغيه.
(٤) أي: أوقد وألهب.
(٥) هي الحرب.
(٦) أي: لمأكول.
(٧) أي: ما يطمع فيه مطلقًا أعمّ من أن يكون مأكولاً أو غيره.
(٨) أي: من خوف.
(٩) أي: اكتسبت.
(١٠) جمع زلة بفتح الزاي بمعنى الخطأ.
(١١) الذي ضاع وانقضى بلا فائدة.
(١٢) أي: حامل للجرم بالضم وهو الذنب.
(١٣) أي: المنسكب.
(١٤) «سير السلف الصالحين» لقوام السنة الأصبهاني (٣/ ٧٤١). طبع دار الراية.